المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثالث بعد المائة

١ اغسطس سنة ١٩٤٣ — ٢٩ رجب سنة ١٣٦٢

العلم والحريات الاربع

في الرسالة التي وجهها الرئيس روزفلت الى مجلسي الكونغرس الاميركي يوم ٦ يناير سنة ١٩٤١ قال « وفي الايام المقبلة التي ننوي ان نحيطها بكل ضمان، نتوقع ان يقوم العالم على اربع حريات انسانية اساسية. اولاً — حرية الكلام والتعبير، في كل بقعة من بقاع الارض. ثانياً — حرية كل امرىء في عبادة الله على طريقته الخاصة، في كل بقعة من بقاع الارض. ثالثاً — التحرر من ربقة العوز، وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه عقد اتفاقات اقتصادية تضمن لابناء كل أمة عيشة راضية، في كل بقعة من بقاع الارض. رابعاً — التحرر من الخوف، وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناهُ خفض السلاح خفضاً عالمياً واسع النطاق حتى يستحيل على أمةٍ ما أن تعتدي على جارة لها، في كل بقعةٍ من بقاع الارض

كذلك تكلم روزفلت السياسي والمصلح الاجتماعي. فماذا يقوله العلم في هذه الحريات، لو تجسَّم العلم رجلاً يستطيع أن يعرب، أو لو تولى عالمٌ مهمة الاعراب عنهُ؟

ليس ثمة ريب في ان الحريات الاربع أصيلة في روح العلم وغرضه وتاريخ تطوره وارتقائه، وليس ثمة ريبٌ كذلك في أن معقد الرجاء في المستقبل، انما هو تآزر العلم والحرية. ولعلَّ غير واحد من قراء هذا المقال يذكر قول الانجيل « وتعرفون الحق والحقُّ يحرركم »

ولولا حرية الفكر والتعبير عن الفكر ما كان للعلم كيان، ولغير العلم في المستقبل، وتعزيز

روحه يكون الرجاء ضعيفاً في تحقيق حرية الانسان . فالناس ما فتئوا من فجر التاريخ ، بل ومن العصور السابقة لعصر التاريخ المدوَّن ، يناضلون ويموتون في سبيل معرفة الحق ، ولكي يطلقوا غيرهم من قيود كثيرة ثقيلة تستعبدهم

ومن المآثر الاولى التي يدين بها البشر الى العلماء الاول تحرير الناس من ربقة السحر وعبادة الاوثان . ومع ذلك ففي كثير من بلدان العالم الآن ، تحدّ حرية الناس في عبادتهم أو تقيَّد بقيود باهظة. وشرٌّ من القيود المادية التي تقيد العبادة ذلك الاستعباد الروحي ، الذي يفرض على المرء ، وينشّأ الصغار على عبادة « الدولة » التي يعدُّها بعضهم كلية القدرة مسيطرة على كل صغيرة وكبيرة في حياة الناس المادية والاجتماعية والعقلية والروحية

ان سرّ الحياة في التربة التي يزكو فيها العلم أسلوباً ونتيجة ، هو حرية البحث وحرية التعبير . فالباحث الذي تمضه غوامض الحياة وتومىء اليه أسرار الطبيعة بإصبع خفية ويكون ذهنهُ مهيأً ، عليه أن ينطلق خفيفاً من كل قيد ، الى حيث يقوده البحث . فاذا قال لهُ البحث في العظم والدم والاحافير ، ان الانسان يمت بصلات كثيرة الى طوائف الحيوان ، على نحو ما يقول أصحاب التطوُّر العضوي فعليه أن يخضع للدليل ، ويجب أن يتاح لهُ أن يقول ذلك . واذا هداهُ البحث الى أن الارض ليست مركز الكون ، كما يقول أصحاب الفلك الحديث منذ عصر كوبرنيكوس وغاليليو ، انقاد الى النتيجة ، ووجب أن يتاح له الاعراب عن رأيه فلا يعذَّب ولا ينفى . واذا تبيَّن ان الاحتراق هو الاتحاد بالاكسجين أخذ به وأذاعه ، بغير أن يعرِّض لقطع رأسه كما فعل رجال الثورة الفرنسية برأس لافوازييه . واذا أيدت الارصاد قولهُ في تحدُّب أشعة الضوء ، وجب ألاّ تنكره حكومةٌ ما لأن صاحبهُ اينشتين وهو غير آريّ . لأنه اذا انتفت حرية البحث ، وحرية تبادل نتائج البحث ، سلب الاسلوب العلمي سرّ حياته ، واذ سلب سرَّ حياته ، عاد الظلام يرين على العقول ، والسلاسل تقيِّد الفكر ، ولو لم تكن من حديد . أي ان شجرة العلم ، ينمشي فيها الذبول فاليبس . وجميع مخترعات الارض ، وهي من شجرة العلم في منزلة الثمر ، مردُّها الى ما كشف من نواميس الطبيعة ، وهي في منزلة الجذور . ما أبلغ قولك يا فولتير حين قلت : « اني أمقت ما تقول وأخالفك في كل كلمة منه ، ولكني أدفع بحياتي عن حقك في أن تقوله »

فالصلة بين طبيعة العلم وتدرجه ، وبين الحريتين الاولى والثانية صلة وثيقة ولا تنفصم بغير ان يعود الانفصام على العلم وعلى الحريتين ، وعلى الاجتماع ، بأعظم ضرر

***

وعن طريق [illegible] وفلسفة خلال العصور ، دنا الناس من الحرية الثالثة وهي التي

وصفها روزفلت بقوله : التحرُّر من ربقة العوز. والقول في ما صنعه العلم من هذه الناحية حتى الآن يستغرق عشرات المجلدات، في وصف ما استنبطه العلماء في ميادين استغلال موارد الطبيعة من معدنية وزراعية، ووفروه من مأكل وملبس ومسكن وصحة لطوائف كثيرة من الناس. ورخاء البشر وسعادتهم مرتبطان بالموارد الطبيعية المتاحة لهم . وبحسن استغلالها . وبغير ذلك لا تجدي النيات مهما تحسن ولا الآمال مهما تسمُ. فوفرة هذه الموارد وإجادة استغلالها من الموضوعات التي يعنى بها كلُّ من يعنيه مستقبل البشر على سطح الارض . والعلماء مجمعون على ان وفرة الموارد الطبيعية تكفي عدداً من سكان الارض يفوق عددهم الآن . ولكنها موزعة توزيعاً غير متساوٍ على سطح الأرض وهذا أصل طائفة كبيرة من وجوه النزاع السياسي والاقتصادي التي يعاني بها البشر . فإتاحة هذه الموارد لجميع الشعوب شرط أصيل لاجتماع دولي مستقرّ . والى هذا أشار روزفلت في تفسير « التحرُّر من ربقة العوز » حيث قال في العبارة التالية : « وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه عقد اتفاقات اقتصادية تضمن لابناء كل امة عيشة راضية . في كل بقعة من بقاع الأرض » . وإلى هذا كذلك أشارت المادة الرابعة من دستور المحيط الاطلسي اذ جاء فيها : انهما (اي روزفلت وتشرتشل واضعا هذا الدستور) يحاولان — مع احترام التزاماتهما القائمة — منح جميع الدول صغيرة كانت او كبيرة ، ظافرة او مقهورة ، حق الوصول الى اتفاقات تجارية متساوية ، والحصول على مواد العالم الاولية التي تحتاج اليها لرخائها الاقتصادي »

وقد صنع العلم مآثر عظيمة خلال القرن الماضي ، في استغلال موارد الارض . ولكن الذين اعتمدوا على العلم في استغلالها ، حصروا الفائدة التي تجنى منها ، في نطاق ضيق أو خاص . فالاستغلال لم يكن على أساس نظرة عالمية شاملة . ومن هنا ما نشاهده في بلد كبير غني بالموارد الطبيعية كالصين والهند من فاقة وسوء حال ، وما نشاهده في بلد آخر من عيش رخي . ومن هنا كذلك ما طرق سمعنا في اثناء الأزمة الاقتصادية العالمية في العقد الماضي ، عن تكدس نتاج الارض في بلد او اكثر . وعن اشتداد الحاجة الى هذا النتاج في بلد آخر او اكثر

والعلم الحديث . لا يكتفي بتبيان كفاية الموارد الطبيعية واستغلالها ، بل يضيف اليها موارد جديدة فتقتها حيل العلماء . فكأنهم أضافوا الى موارد الطبيعة ، وبعضها صائر الى النفاد ، موارد لا تحد ولا تنفد . وقد ضربنا من أشهر مثلاً على ذلك عندما قلنا : ان كتب السياسة والاقتصاد التي كتبت او نشرت قبل قرن ونصف قرن من الزمن تشير الى ان أقطاب التفكير السياسي والاقتصادي كانوا غارقين في بحر من التشاؤم حيال موارد الطعام المتاحة للبشر على سطح الأرض . وكتب مالثوس رسالة بيّن فيها ان عدد سكان الكرة الارضية يميل الى

الزيادة زيادة تفوق زيادة موارد الطعام . وعلى هذا حكم على الجنس البشري بالعيش في حدود الفاقة والجوع، الا اذا ابتدع طريقة تحد من تكاثره . ولم يكن أحد من العلماء قادراً حينئذٍ على إدحاض مذهب مالتوس لأن أحداً لم يكن قادراً ان يتصور ما يجيء به العلم في الغد .
وما جاء به العلم في الغد لم يكن فتح مناطق شاسعة من الاراضي البكر وحسب، فهذه خاضعة على طول المدى لحكم مالتوس . ولكنه جاء بأساليب ، أحلت الزراعة الجديدة محل الزراعة القديمة . فنطاق المعارف آخذ في الاتساع ، وتطبيق المعارف العلمية على الزراعة مقترناً بارتقاء أسباب المواصلات والنقل زاد قدرة الانسان على إنتاج الطعام من الارض ، واتاحته لمن يحتاج اليه ولو كان بعيداً عن موقع انتاجه . فزاد سكان الارض بعد وفاة مالتوس زيادة كبيرة ، ولكن معدّل انتاج الارض زاد كذلك . بل ان زيادة معدل القدرة على الانتاج الزراعي سبقت معدّل زيادة السكان . وهناك دلائل كثيرة تدل على اننا ما زلنا في مستهل العصر الذي يمكننا فيه العلم من استغلال الارض على أوفى وجه مستطاع

وما حدث في الزراعة وموارد الطعام ، حادث الآن في الصناعة وموارد الصناعة . فقد كان الظن الى عهد غير بعيد ان موارد الخامات اللازمة للآلات ، في عصر الصناعة ، لا تكفي لاشباع نهم الآلات . هنا منجم فحم ، وهناك بئر نفط ، وكلٌّ من يملك المنجم أو البئر يستطيع أن يشبع نهم آلاته ، وعلى غيره أن يقنع أو ان يحارب في سبيلها . ولكنّ العلم الحديث أثبت ، انك تستطيع ان تصنع من موارد الطبيعة ، التي تخرجها الارض — وهي موارد لا تنفد وتتجدد كلّ سنة — طائفة كبيرة من المواد التي كنا نعتمد فيها على المناجم والآبار . فئات من العجائن الكيميائية ، تحلّ محل عشرات من الفلزات في أوضاع ووجوه من الاستعمال شتى . والمطاط والنفط والاسمدة وغيرها ، تصنع الآن بالتركيب الكيميائي . وفول الصويا وحده — في فرع علم الكيمرجي أي استخراج مواد الصناعة من منتجات الحقول — كنز لا يفنى . ففي حبه طاقة تجهز بها مدننا كلها . وفيها مواد كثيرة تصلح لشتى الصناعات علاوة على مواد الطعام التي تؤخذ من هذه الحبوب ، يستخرج دهن يحل محلّ النفط في محركات ديزل ويصنع نوع من البنزين وصوف . ومواد من قبيل العجائن تدخل في هياكل شبابيك السيارات ومقابض أكر الابواب ، ودهان يدهن به الخشب والحديد ، ومطاط وغير ذلك . والتحرّر من العوز يجرّ في أثره التحرّر من الجوع والمرض

ونحن من هذا التطوّر العلمي لا نزال في مستهل المرحلة الاولى

فاذا قال رجال السياسة « التحرر من ربقة العوز » . قال رجال العلم : « اليكم ، بين أيديكم »

أما الحرية الرابعة فهي التي وصفها روزفلت بقوله إنها « التحرر من الخوف ». والمعنى الاول الذي اتجه اليه ذهن روزفلت هو التحرر من خوف الحرب. فهل عند العلم ما يقوله في قدرة الانسان على التحرر من خوف الحرب ؟

من عهد قريب عمد كاتب علمي أميركي يدعى بروس بليفن ، الى استطلاع آراء العلماء في هذا الموضوع وقد وصف نتائج بحثه في كتاب جديد دعاه « الرجال الذين يبنون المستقبل » ، ويلخص ما قاله في هذه الناحية الخاصة في ما يلي : مع تعدد الآراء في هذا الموضوع الخطير يكاد يكون هناك اجماع بين علماء العصر في هذه الأيام على ان الحضارة الحديثة لا تنطوي على قوى قاسرة ، تدفع البشر دفعاً الى الحرب كل فترة قصيرة من الزمان ، ما لم ينحدر البشر الى همجية لا يحق لأحد أن يتوقعها ، برغم نوائب الحرب. فالحرب في نظر علماء الاقتصاد لا تجدي جدوى مالية ، لا على الغالب ولا على المغلوب ، ولو أنفق جزء يسير مما ينفق على الحرب ، في سبيل تحسين العيش وتربية الناس لمهد السبيل الى ارتقاء شعوب الارض ارتقاء صحيحاً في الصحة والعمل وطلب الاشياء العليا. وضغط السكان بحسب ما هو معروف من اتجاه معدّل المواليد والوفيات الآن ، لا يكفي في نظر علماء الاجتماع لتسويغ الحرب. فهو في كثير من الأمم وعلى الأكثر مائل الى النقص. والنزاع على موارد الخامات الصناعية لا يجب أن يكون باعثاً على الحرب ، اذا صفت النية وأحسن التوزيع. فموارد الارض نفسها وآيات العلم الحديث والصناعة ، تكفي جميع الشعوب وتفي بحاجتها القصوى.

وعلماء الطبيعة البيولوجية لا يقرون وجود غريزة تدفع الى الحرب ، او تجعل الحرب امراً لا مفرّ منهُ. فالاعتداء في نظرهم يتلوّن بلون البيئة الاجتماعية. فعندما كانت البيئة الاجتماعية تبيح المبارزة كان الجبان يقدم عليها ، وعندما قضت البيئة الاجتماعية بأن المبارزة شرٌّ اجتماعي ، أصبح أشدّ الناس ميلاً الى العدوان يسعى الى حسم الخلاف بالتحاب اوهن طريق المحاكم. وعلماء النفس والتربية يذهبون الى انهُ في الوسع السيطرة على الانفعالات والتحكم فيها والتسامي بها. وهذه الطائفة من العلماء تذهب الى ان المربين متأهبون للذهاب الى مدارس الأمم المغلوبة ، واخراج جيل بعد سنين ، يؤمن بتفضيل الاسلوب الدمقراطي ومزاياه في تنظيم الاجتماع البشري على النظم الاخرى. فالعلماء مجمعون او في حكم المجمعين على ان علاجاً لغير حرب مستطاع وانهُ على كل حال ضروري ، وفي تحقيق هذا الغرض لا بدَّ لأقطاب الأمم من الاستعانة بما كشفهُ العلم الحديث في الزراعة والصناعة لتوفير أسباب العيش لكل أحد ، وما يقتضيه العلم الحديث من حربة هي سرُّ حياته. وما عرفه علماء النفس والاجتماع بالبحث والتجريب عن طبائع البشر وطبائع منشآتهم.